السرد القصصي في أشعار ديوان الأصمعيات

أ.د. حاكم حبيب الكريطي
م.م. كوثر هانف كرم
جامعة الكوفة / كلية الآداب
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

الملخص

وللعرب أنواع عدة من القصص ابتدعوها من واقعهم أمثال : القصص الإخباري وما تتضمنه من أخبار ونوادير طريفة والحكايات الفخرية . وما تتضمنه من ذكر للمشاحنات ذات الطابع القبلي . فضلاً عن القصص التي تتناول مفردات حياتهم بذكر تجاربهم ودلائل حضارتهم . والقصص التي تتناول معتقداتهم الدينية وأخبار كهنتهم . وقصص الكرم والمفاخرات . وقصص الفروسية وقوة النفس (٢) .

ويلاحظ أن استعمال السرد القصصي في الشعر القديم . أسبغ على مراحل بناء القصيدة قدرة فنية عالية في استيعاب الحدث وتطويعه . وهذا ما أفادت منه القصيدة ذات المنحى الغنائي . في إكساب العواطف الذاتية المظهر الموضوعي . وما يقوي فيها من الوحدة العضوية (٣) . وذلك لأن القصيدة العربية « استوعبت الأنواع الشعرية المختلفة . وفي إطار وحدتها الفنية المتناسكة . إذ إن هذه الوحدة جعلت القصيدة العربية كائناً حياً لا يمكن تقطيعه إلى أجزاء وبناءً على هذا نقول أن القصيدة العربية استوعبت الأماط الشعرية كافة . ولهذا لا يصح أن نقول أن القصيدة العربية غنائية ونكتفي أو ملحمية أو قصصية أو تعليمية . وإنما هي كائن متميز ومزيج متجانس من هذه الأماط » (٤) . وعليه فالشعر العربي قبل الإسلام « هو الوسيلة التعبيرية الأولى عن حياة العرب فمن البديهي أن يتضمن هذا الشعر ألواناً من تلك القصص التي أنتجت الحياة العربية » (٥) .

إن السرد القصصي أسلوب فني التجأ إليه شعراء الأصمعيات لتصوير واقع حياتهم . فالشاعر دائماً يهدف إلى تسخير أو توظيف جل طاقاته الإبداعية . وقدراته الفنية لبلوغ الهدف الذي يرمي إليه . ألا وهو التعبير عن أفكاره ومشاعره ورغباته . والتأثير بالمتلقي وإحداث المتعة في آن واحد . وأثناء ذلك يسلك طريقاً طويلاً مكللاً بمراحل عدة . ومناهج متباينة . وأساليب مختلفة للوصول إلى هدفه . ولذلك أوجد الشعراء في القصة الشعرية وربما بعض عناصرها المجال الواسع للتعبير عن أفكار أمنوا بها . أو مواقف مروا بها . وفي الوقت نفسه كسب إعجاب المتلقين والسامعين . فأنجوا القصة الشعرية أو الشعر القصصي بما يمتلك من مقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق نفسية قصصية اصططفت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

المقدمة

ما لاشك فيه أن ظاهرة السرد القصصي في الشعر الجاهلي كانت مألوفة . فقصة حمارة الوحش . وقصة ثور الوحش . والقصص الغرامية لامرئ القيس والمنخل اليشكري وغيرهما . ليست بالغرابة بل لها أبعادها الرمزية والتعبيرية في نفوس الشعراء والمتلقين على السواء (١) ولاسيما بعد أن عمق هذه الظاهرة ورود القصص القرآني .

عُذْرَةٌ حَيْثُ انصرفتُ وانصرفُوا
 إنِّي لأهْوَاكِ غَيْرَ كاذِبَةٍ
 قد شُفِّ مِنِّي الأحشاءُ والشَّغِفُ
 بل لَيْتَ أهلي وأهْلَ أثلةٍ في
 دارٍ قَرِيبٍ من حيثُ يُخْتَلَفُ (٧)

ويمضي الشاعر في سرد قصته إذ أتخذ من تصوير هذه الحبيبة غطاءً شفافاً لسرد القصة بشخصياتها وأحداثها بألفاظ رقيقة وحديث طريف يتناسب وموقف الوجد والهوى الذي شغفه بحب تلك المرأة . فضلاً عن هذا فإن سير الأحداث بهذا الشكل يعمل على تماسك الأبيات والصور والمعاني ، ويسبغ على القصيدة وحدة فنية متماسكة. فقد عمد الشاعر إلى دعم حكايته بصور جزئية متتابعة ، وهذا التسلسل في أجزائها يكون الصورة الشعرية التي أراد تصويرها لتكون أكثر تلاحماً ، ومن الممكن أن يطلق عليها « الحكاية المصورة » (٨) لأنها اعتمدت على وصف أخبار وحكايات فحسب .

وكما هو معروف أنّ حياة العرب قائمة على الحل والترحال والتنقل من مكان لآخر . وغالباً ما يستتبع هذا التنقل حسرة ولوعة في نفوسهم خاصة وهم قد أوجدوا علاقات اجتماعية وعاطفية . وهنا يقف الشاعر في لحظة الرحيل واصفاً الطعائن ومشاهد الرحيل بنبضات تمزق قلبه حباً وحنيناً ، فأخذ ينفث ما يشعر به صدره شعراً ينبض بإحساسهم ولوعتهم تجاه من رحل من الأحبة و « الحديث عن الطعن يرتبط بماضي الشاعر ارتباطاً وثيقاً ... فيحرص الشعراء في حديث الطعائن على الإلمام بأدق التفاصيل . حتى لا تفوتهم شاردة من هذه المشاهد . فكأنهم بذلك يجدون أن من حق الوفاء عليهم أن يعنوا بأخر عهد لهم بأصحاب هذه الطعائن » (٩) .

ومن تلك الوقفات وقفة لأبي دواد الأيادي واصفاً طعائن الحبيبة باعناً فيها هيامه وحزنه بقوله: (من الخفيف)

مَنَعَ النَّوْمَ مَأْوَى التَّهَمَامِ
 وَجَدِيرَ بِالْهَمِّ مِنْ لَا يَنَامُ
 مَنْ يَنُمُ لَيْلُهُ فَقَدْ أَعْمَلَ اللَّيْلَ
 لَ وَذُو الْبَيْتِ سَاهِرٌ مُسْتَهَامُ
 هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ بَاكَرَاتِ
 كَالْعَدَوِيِّ سَيَّرُهُنَّ انْقِحَامُ
 وَكِنَاتٍ يَقْضَمْنَ مِنْ قَضْبِ الضَّرِّ
 مَرُوبِشْفَى بَدَلْنَهُنَّ الْهُيَامُ

وقد جاء القصص في ديوان الأصمعيات بأنواعه المختلفة فهناك : قصص المغامرات العاطفية (٦) . وقصص طيف الخيال ، وقصص الكرم ، وقصص الرثاء . وقصص الحيوان . إذ جسد فيها الشعراء عناصر القصة المتمثلة في الشخصوص والمكان والزمان والحبكة أو الحدث . ولعل أولى تلك القصص هي :

١-حكايات الغزل أو المغامرات العاطفية

وهي قصص يروي من خلالها الشاعر حادثة أو واقعة غرامية كان قد مر بها وعاشها بإحساسه ومشاعره . كما في قصيدة قيس بن الخطيم في اصمعية له يقف فيها متحسراً على رحيل أبناء جيرانه ويدعو أن لا يبعدوا عن قومه لجه الشديدي لأبنة الجيران . فأخذ يتذكر أيامه الجميلة معها ويصف شكلها وقوامها الحسن . وتحدث عن لطفها ورفقتها بقوله: (من المنسرح)

رَدَّ الخَلِيطُ الجِمَالَ فَانصَرَفُوا
 مَاذَا عَلَيْهِمْ لَو أَنَّهُمْ وَقَفُوا
 لَو وَقَفُوا سَاعَةً نُسَائِلَهُمْ
 رِيثَ يَضْحَى جِمَالَهُ السَّلْفُ
 فِيهِمْ لَعُوبُ العِشَاءِ أَنْسَةُ الـ
 دَلَّ عَرُوبٌ سَيَوُوهَا الخَلْفُ
 بَيْنَ شُكُولِ النِّسَاءِ خَلَقَتْهَا
 قَصْدٌ . فَلَا جَبَلَةٌ وَلَا قَصْفُ
 تَغْتَرَّقُ الطَّرْفَ وَهِيَ لِأَهْيَةِ
 كَأَمَّا شَرَفٌ وَجَهَّهَا نَرْفُ
 قَضَى لَهَا اللّهُ حِينَ صَوَّرَهَا الـ
 خَالِقُ أَنْ يُكِنَّ نَهَا سَدْفُ
 تَنَامُ عَنْ كُبْرٍ شَأْنَهَا فَاذَا
 قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغَرَفُ
 حَوْرَاءُ جَيِّدَاءُ يَسْتَضَاءُ بِهَا
 كَأَنَّهَا خُوطُ بَانَةِ قَصِفُ
 تَمْشِي كَمْشِي الزَّهْرَاءِ فِي دَمَثِ الـ
 رَمَلِ إِلَى السَّهْلِ دُونَهُ الجُرْفُ
 وَلَا يَغْتَبُّ الحَدِيثُ مَا نَطَقَتْ
 وَهُوَ بِفِيهَا ذُو لَدَّةٍ طَرْفُ
 كَأَنَّ لَبَّاتِهَا تَضَمَّنَهَا
 هَزَلَى جِرَادٍ أَجْوَاؤُهُ جُلْفُ
 كَأَنَّهَا دُرَّةٌ أَحَاطَ بِهَا الـ
 غَوَاصُّ يَجْلُو عَنْ وَجْهِهَا صَدْفُ
 يَارَبِّ لَا تُبْعِدَنَّ دِيَارَ بَنِي

وثمة أرجوزة كاملة للشاعر صحير بن عمير أقامها على الحوار الذي دار بين رجل وامرأة لعلها زوجه. إذ كانت تعيره على فقره. كما تعيبه لكبر سنه بقوله: (من الرجز)

تهزأ مني أخت آل طيسله
قالت : أراه مُلقاً لاشيء له
وهزئت مني بنت موعله
قالت : أراه دالفاً قد دنى له
وأنت لا جُنبت تبريح الوله
مزوودة أو فاقداً أو مُثكله
ألسيت أيام حللنا الأعزله
وقبل إذ نحن على الضلضله
وقبلها عام ارتبعنا الجعله
مثل الأتان نصفاً جنعد له
وأنا في ضراب قيلان القله
أبقى الزمان منك ناباً نهبله
ورحماً عند اللقح مقفله
إمّا ترينني للوقار والعله (٤)

وهكذا يمضي صحير بأرجوزته هذه بطابعها الحوارية. إذ رد مصوراً حاله وحالتها في سالف الأيام والباقي منها. ثم هجاها هجاء لاذعاً وخلص إلى غرضه الأساس الفخر بنفسه مجسداً فيها لعناصر القصة من حوار وشخصيات وأحداث. وما يلاحظ أنها في أغلبها قائمة على التشبيه. إذ يستعمل الشاعر ما تتيحه له إمكانياته التعبيرية والفنية في تلوين قصته بتلك الأساليب. وبألفاظ جزلة.

وثمة قصص قصيرة تطالعنا في قضية (طيف الخيال) والتي يقولها الشاعر حين يفارق أحبته. فيرى الأحبة في اليقظة خيالا. وفي النوم حلماً بالشكل الذي يكون فيه الحلم أحب إليه. لأن أحداثه تشبه اليقظة إلى حد كبير (١٥). كما في قول مالك بن حريم الهمداني: (من الطويل)

تذكرت سلمى والركاب كأنها
قطاً واردة بين اللُفاظ ولعلها
فحدثت نفسي أنها أو خيالها
أنا عشاءً حين قمنا لنهجعاً
فقلت لها بيتي لدينا وعريسي
وما طرقت بعد الرقاد لتنفعا (١٦)

وسبتني بنات نخلة لو كُن
ت قريباً ألمم بي ألمم
يكتين البنجوج في كبة المش
تى وبله أحلامهن. وسام
ويصن الوجوه في الميسنان
سى كما صان قرن شمس غمام
وتراهن في الهوادج كالغز
لان ما إن ينالهن السهام
نخلات من نخل بيسان أينع
ن جميعاً وبتهن تؤام
وتدلت على مناهل برد
وقليج من دونها وسنام (١٠)

لقد افتتح الشاعر قصيدته بالهم والحزن وسهر عينيه التي لا تنام لفراق الأحبة ويلاحظ أن مقدمة القصيدة تتلام مع ما كان بينه وبين حبيبته. ثم انتقل الشاعر مباشرة إلى الحديث عن الهوادج والحمول. إذ تخيل ظعائن الحبيبة وصواحباتها فأجرى في ذلك غزلاً طريفاً. فأخذ يصف الحبيبة. ويصف النسوة في داخلها. فهن كالغزلان في جمالهن ولطفهن. ثم يمضي يورد الأماكن التي تنقلت بينها الظعائن. ثم خلص إلى غرضه الرئيس. إذ وصف خيله وخوضه الحروب على ظهرها مستوفياً فيها الشاعر عناصر القصة كلها من شخصيات المتمثلة بالشاعر نفسه وبتلك النسوة وقوم حبيبته. والحدث هو وصف ساعة الرحيل. والزمان هو الخروج في الصباح الباكر. والمكان المتمثل بـ (نخلة. بيسان. برد. فليج. سنم).

ما لاشك فيه أن للمرأة مكان الصدارة عند أغلب الشعراء إذ « يندر أن نجد شاعراً من شعراء العرب قبل الإسلام لم يعط المرأة من فيض وجدانه حقها. فقد خصها أغلب الشعراء بمقدمات قصائدهم إجلالاً لها. وتعبيراً عن صدق المشاعر تجاهها» (١١).

وفي شعر الأصمعيات نجد لها حضوراً مميزاً سواء أكانت زوجاً أم حبيبة. وسواء كانت لائمة على الإنفاق (١٢) أم على مجابهة الأخطار (١٣). أم معيبة للزوج لبيان شيب رأسه وكبره. وهي في جميعها تتخذ من الحوار جسراً لبث الأفكار وما يعتمل في نفسية الشعراء من ألم وشجون. فلجأوا إلى هذه المخاطبة لتنفيس عما في داخلهم. وبمختلف الصياغات.

يستهلها بذكر الأطلال ثم يصف الفلوات التي قطعها والثيران الوحشية والقطا التي لافته. ويصف الناقة التي يمتطيها. فقد شبهها تارة بالثور وتارة بالظليم. وتطرق إلى وصف الصراع الذي دار بين الثور وكلاب الصيد. وكيف أمكنه أن ينجو منتصراً: (من الطويل)

كَأَنِّي كَسَوْتُ الرَّجُلَ أَخْنَسَ نَاشِطًا
أَحَمَّ الشَّوَى فَرَدًّا بِأَجْمَادِ حَوْمَلَا
شَدِيدَ سَوَادِ الْحَاجِبِينَ كَأَنَّمَا
أَسِيفٌ صَلَّى نَارَ فَاصْبَحَ أَكْحَلَا
فَصَبَّحَهُ عِنْدَ الشُّرُوقِ غُدِيَّةً
أَخَوْ قَنْصٍ يُشْلِي عِطَافًا وَأَجْبَلَا
فَجَالَ عَلَى وَحْشِيَّةٍ وَكَأَنَّهَا
يَعَاسِيْبُ صَيْفِ إِثْرِهِ إِذْ تَمَهَّلَا
فَمَارَسَهَا حَتَّى إِذَا حَمَّرَ رَوْقُهُ
وَقَدْ عُلَّ مِنْ أَجْوَاهِنَ وَأَنْهَلَا
يَسَاقِطُ عَنْهُ رَوْقُهُ ضَارِيَاتَهَا
سِقَاطِ حَدِيدِ الْقَيْنِ أَخْوَلِ أَخْوَلَا
فَظَلَّ سِرَاةَ الْيَوْمِ يَطْعُنُ ظِلَّاهُ
بِأَطْرَافِ مَدْرَبَيْنِ حَتَّى تَفَالَلَا
وَرَا حَ كَسَيْفِ الْحَمِيرِيِّ بِكَفِّهِ
نَضًا غِمْدَهُ عَنْهُ وَأَعْطَاهُ صَيْقَلَا
وَأَبَّ عَزِيْزَ النَّفْسِ مَانِعَ لِحْمِهِ
إِذَا مَا أَرَادَ الْبُعْدَ مِنْهَا تَمَهَّلَا (١٨)

وهكذا يمضي الشاعر في سرد قصته معتمداً لغة السرد الوصفي لإظهار معاناته ومعاناة ناقته في سبيل الوصول للممدوح. فضلاً عن إبراز شجاعته في مواجهة الصعاب. وهذا المنحى مألوف في أشعار الجاهليين بوصفه المحور المركزي لفهم الشعر العربي. ومن هنا جاءت اللغة في هذا الضرب القصصي ذات خصائص بدوية تنسجم وطبيعة البيئة الصحراوية. فجاءت اللغة ذات سرد متتابع لحالة الشاعر مع ناقته. وما شاهده من صراع بين ثور الوحش وكلاب الصيد. إذ صورة اليعاسيب في الصيف. وحمّر روقه. أي طعن الكلاب بطعنات نافذة إلى الأجواف. لذا نجد يتصفح أجواء الصحراء لفظاً ومعنى (١٩).

ومن أمثلة القصص المكتملة قول أبي دواد الإباضي في أصمعية له كانت نموذجاً قصصياً
من قصص الحيوان. جاءت مستوفية لأغلب عناصرها الفنية. فقد قص فيها رحلة الصيد بالفرس من ذلك

فالشاعر استثمر معطيات السرد بين الحبيبة وبينه في بناء الحدث. فقد وظف عناصر البناء المختلفة من حوار داخلي وسرد. والذي يهدف فيه إلى معنى نفسي يرتبط بحالته الوجدانية والعاطفية. فالصورة هنا جسدت الانفعال النفسي الذي يشعر به الشاعر. فجاءت الحكاية وظيفتها نفسية أكثر من كونها فنية. فقد عبرت عن شعور وجداني وذاتي بحت.

ومثله قول معاوية بن مالك في مقدمة قصيدته: (من الكامل)

طَرَقْتُ أَمَامَةَ الْمَزَارِ بَعِيدُ
وَهَنَّا وَأَصْحَابُ الرَّحَالِ هُجُودُ
أَنِّي اهْتَدَيْتُ وَكُنْتُ غَيْرَ رَجِيلَةٍ
وَالْقَوْمُ مِنْهُمْ نُبَّهَ وَرَقُودُ (١٧)

يجسد الشاعر هنا حكاية (طيف الخيال). وكيف طاف عليه طيف محبوبته ليلاً. إذ الناس نيام. واهتدى إليها على الرغم من أن بعضهم أي القوم بين مستيقظ ونائم. ويلاحظ هنا أن القصة تمثل حركة انفعال سريع للحدث على الرغم من فقدانها عنصر الحوار لكنها جاءت أكثر إثارة في عرض الخبر البسيط والسرد السريع. إذ اتخذه الشاعر وسيلة للتعبير عن رغباته أو حرمانه.

وهكذا يأخذ الشاعر في قص طيف محبوبته ويبرع في تصوير خيالها وهو يأتيه في النوم واليقظة. ويلاحظ على هذه القصص أنها جاءت بلغة أكثر ميلاً أو قرباً من الذاتية منها إلى الموضوعية. وذلك لإنها متعلقة بذات الشاعر ومخصوصة بالتعبير عن مكنون نفسه وأماني سريرته.

٢- قصص الحيوان

وهي ضرب من القصص التي استثمرها الشعراء في أشعارهم في وجوه كثيرة وفي مختلف الأغراض الشعرية في المدح والفخر والهجاء وغيرها. فيعتمد الشعراء إلى وصف رحلاته وما شاهده أثناء تلك الرحلة في الصحراء. وما يعترضهم من مخاطر. فيقف مصوراً تلك المشاهد متخذاً من أسلوب الحوار وسيلة لإبراز مقدرته الفنية والتعبيرية. لأن الحوار يعتمد على معان نفسية ترتبط بالحدث.

ومن تلك المشاهد قول ضابئ بن أبي الحارث في قصيدة

الشقية التي قضاها في عملية الصيد والطرْد ، والزمان في منتصف الليل ، المكان واد بين جبلين .

٣- قصص المعارك والأيام

يتصاعد في هذه القصص النفس الذاتي مع اختلاطه بالنفس الجماعي ، إذ حس الفخر والحماس يطغى عليها ، فقد وظف الشعراء في تلك الوقائع البطولية قصص ظل يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل حتى صارت بمثابة حدث تاريخي لا يمكن نسيانه ، فنجد يسرد ما حدث وما شاهد من دون مبالغة مصوراً ما يختلج في أعماقه أو ما تركته تلك المعركة من أثر نفسي وانفعال شعوري عبر عنه بصدق وموضوعية ، ومن تلك القصص قول مالك بن نويرة واصفاً لـ (يوم مخطط) وهو من أيام بني يربوع في الجاهلية انتصرت فيه على قبيلة بني بكر. فاخذ مالك يصف ما سمعه عن ذلك اليوم : (من الطويل)

إِلَّا أَكُنْ لَأَقِيتُ يَوْمَ مَخَطِّطٍ
فَقَدْ خَبَّرَ الرُّكْبَانُ مَا أَتَوَدَّدُ
أَتَانِي بِنَفْرِ الحَايِرِ مَا قَدْ لَقِيتُهُ
رَزِينٌ وَرَكِيبٌ حَوْلَهُ مُتَعَضِّدٌ
يُهْلَتُونَ عُمَارًا ، إِذَا مَا تَغَوَّرُوا
وَلَاقُوا قَرِيْشًا خَبَّرُوها فَأَجْدُوا
بِأَبْنَاءِ حَتَّى مِنْ قَبَائِلِ مَالِكِ
وَعَمِرُو بِنِ يَرْبُوعِ أَقَامُوا فَأَخْدُوا
وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَرَّحَهُمْ حَوْلَ دَارِهِمْ
ضِنَاكًا وَلَمْ يَسْتَأْنِفِ المِتْوَحِّدُ
حُلُولَ بَفَرْدَوْسِ الإِيَادِ وَأَقْبَلَتْ
سَرَّارَةَ بَنِي البَرَشَاءِ لَمَّا تَأَوَّدُوا
بِالْفَيْنِ أَوْ زَادَ الخَمِيْسُ عَلَيْهِمَا
لِيَنْتَزِعُوا عِرْقَاتِنَا نَمَّ يَرْغُدُوا
وَكَانَ لَهُمْ فِي أَهْلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ
مَبِيْتٌ ، وَلَمْ يَدْرُوا بِمَا يُحْدِثُ العَدُوُّ
فَلَمَّا رَأَوْا أَدْنَى السَّهَامِ مُعْزَبًا
نَهَاهُمْ ، فَلَمَّ يَأْوُوا عَلَى النِّهْيِ أَسْوَدُ
وَقَالَ الرَّئِيسُ الحَوْفَزَانُ : تَلْبُتُّوْا
بَنِي الحِصْنِ ، إِذْ شَارَفْتُمْ ثُمَّ جَدَّدُوا
فَمَا فَتِنُوا حَتَّى رَأَوْنَا كَأَنَّتِنَا
مَعَ الصَّبْحِ آدَى مِنَ البَحْرِ مُزِيدُ
بِلَمُومَةٍ شَهْبَاءٍ يَبْرُقُ خَالُهَا
تَرَى الشَّمْسَ فِيهَا حِينَ ذَرَّتْ تَوَقَّدُ

قوله : (من المتقارب)

وَدَارُ يَقُولُ لَهَا الرَّرْدُو
نَ وَيَلُّ أُمَّ الحُذَاقِي دَارًا
فَلَمَّا وَضَعْنَا بِهَا بَيْتِنَا
نَتَجْنَا حُوَارًا وَصِدْنَا حِمَارًا
وَبَاتِ الظَّلِيمُ مَكَانَ المِجَدِ
نَنْ تَسْمَعُ بِاللَّيْلِ مِنْهُ عِرَارًا
وَرَا حَ عَلَيْنَا رِعَاءٌ لَنَا
فَقَالُوا : رَأَيْنَا بِهَجَلِ صَوَارًا
فَبَيْنَمَا عُرَاهُ لَدَى مُهْرِنَا
نُنزَعُ مِنْ شَفَتَيْهِ الصَّفَارَا
وَبِتْنَا نَغَرَّتْهُ بِالْجَامِ
نُرِيدُ بِهِ قَنَصًا أَوْ غَوَارَا
فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سُدْفَةٌ
وَلَا حَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا
غَدُونَا بِهِ كَسِيوَارِ الهَالُو
كَ مُضْطَمَّرًا حَالِبَاهُ اضْطِمَارَا
مَرُوحًا يُجَاذِبُنَا فِي القِيَادِ
تَخَالُ مِنَ القَوْدِ فِيهِ أَقْوَارَا
ضُرُوحُ الحِمَاتَيْنِ سَامَى التَّلِيلِ
وَتُوبَا إِذَا مَا انْتَحَاهُ الخَبَارَا
فَلَمَّا عَلَا مَتْنَتَيْهِ الغُلَامُ
وَسَكَّنَ مِنْ آلِهِ أَنْ يُطَارَا
وَسُرَّحَ كَالْأَجْدَلِ الفَارَسِ
سَى فِي إِثْرِ سِرْبٍ أَجِدُّ النِّقَارَا
فَصَادَ لَنَا أَكْحَلُ المَقْلَتِ
بَيْنَ فَحْلَا وَأُخْرَى مَهَاةَ تَوَارَا
وَعَادَى ثَلَاثًا فَخَرَّ السِّنَا
نَ إِمَّا نَصُولَا وَإِمَّا انْكَسَارَا
أَكَلَّ امْرُؤٌ خَمْسِينَ أَمْرًا
وَنَارٌ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا (٢٠)

تبدأ القصة في هذه الأصمعية بالاستعداد للصيد والخروج ليلاً ، حتى يكون الشاعر ومن معه على مقربة من مكان الصيد ، فقد صاد فحلاً وبقرة ، ويتبع ثلاثة أخرى رمياً وقتلاً ، فيصرعهن الواحدة تلو الأخرى .

ويلاحظ أن الشاعر استوفى عناصر القصة من شخصيات والحدث والمكان والزمان ، فالشخصيات هي الشاعر نفسه وأصحابه والجواد ، والأحداث المتسلسلة في عملية الخروج للصيد ، والحصول على الصيد ، والمطاردة

إلى الحدث . ووصف الجو العام لتلك المعركة . ثم متابعة الحركة فيها ابتداءً من مجيء قريش إليهم إلى نهاية المعركة . فجاء بتسلسل منطقي وزمني واقعي لها . فضلاً عن غياب شخصية الشاعر هنا . فهو يصف حاله وحال المقاتلين من قومه . فلم يخص ذاته بشيء من التمجيد والإطراء . وإنما تحدث بواقعية التي أبعدهت عن المبالغة والتوهيل الذي يتطلبه الفخر بمثل هذه المواقف . وتبدو هنا أيضاً دقة الشاعر في رصد حركة المقاتلين والتصدي لهجومهم السريع الخاطف بقوله (أتتنا قريش بجمعهم) ولم تنس ذاكرته السمعية أصوات الطعن والضرب بالسيوف . وهم لا يستطيعون ردها بقوله (حبت دونهم بكر فلم تسطعم ... كأنهم بالمشرفية سامر) وهنا يعترف عوف ببأس الخصم وشجاعته في الحرب وانتهى به الأمر في آخر المطاف إلى عقد الصلح بين الجماعتين . إذ عمد على ذكر الحدث بشكل مفصل . فضلاً عن ذكره لإسماء بعض الشخصيات من كانت لهم مكانة خاصة عندهم . حتى جاء كلامه كاملاً وشاملاً ولم يكن خارجاً عن الموضوع . ولا مخللاً بالوحدة الفنية للقصيدة . فقد أوجد صورة متكاملة لتلك المعركة متجسدة بالسردي للحادثة أو المعركة . لذا فقد جاء هذا البناء الفني المتكامل في وحدة متقنة تختفي فيها الذات وراء الرصد الأمين بجزيئات الأمور . وتطالعنا قصيدة المهلهل بن ربيعة يصف حاله بعد مقتل أخيه . فأخذ يقص مفتخراً بما حلّ بخصومه . وهو يتمنى أن ينبش قبر أخيه ليخبره عما لاقاه الأعداء من ضرب عسير وقاسي مصوراً وقفته الصارمة في طلب ثأره بقوله : (من الوافر)

أَيْلَتْنَا بِذِي حُسْمٍ أَنْبِرِي
إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَاحُورِي
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي
فَقَدْ يُبْكِي مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ
فَلَوْ نُبِشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كَلْبِيبِ
فِيْخَبِرَ بِالذَّنَائِبِ أَيْ زَبِرِ
بِيَوْمِ الشَّعْثَمِيِّنَ لَقَرَّرَعَيْنَا
وَكَيْفَ لِقَاءٍ مِنْ حَتِّ الْقَبُورِ
فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ بِوَارِدِ
بُجَيْرًا فِي دَمٍ مِثْلِ الْعَبِيرِ
وَهَمَّامِ بْنِ مَرَّةٍ قَدْ تَرَكْنَا
عَلَيْهِ الْقَشَعَمَانَ مِنَ النَّسُورِ

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى عَلَتْهُمْ كَائِبٌ
إِذَا لَقِيَتْ أَقْرَانَهَا لَا تُعْرَدُ
ضَمَّنَا عَلَيْهِمْ طَائِبَتَهُمْ بِصَائِبِ
مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى اسْتَأْسَرُوا وَتَبَدَّدُوا (٢١)

وقف الشاعر هنا مصوراً ما دار في الميدان وكأنه مصور يرسم بشعره ما شاهده . ووسيلته إلى تحقيق ذلك هذا السرد الذي تماسكت به أجزاء أبياته . فضلاً عن ذلك الارتباط النفسي بين أجزاءها . مما شكل صورة نفسية بل صورة تفصيلية للأحداث الواقعة . كان الشاعر دقيقاً في وصف تلك المعركة من حيث التحرك والتصوير المسهب بخفة وسرعة تناسب وأصوات الطعن والضرب بالسيوف مجسداً عناصر القصة بكل دقة مع الإشارة إلى أسماء المواضع والأشخاص . ليبين واقعية ذلك الحدث المروي . فجاءت الفاظه قوية الجرس . ايجابية المعنى إذ هي رماع وسيوف . وطعن وضرب . وقتل واسر . وأشلاء وانتصار ووقائع .

ومثله قصيدة عوف بن الأحوص التي قالها في الحرب التي دارت بين قومه من ناحية . وبين قبائل كنانة وبكر وقريش من ناحية أخرى : (من الطويل)

أَتْنَا قُرَيْشَ حَافِلِينَ بَجْمَعِهِمْ
وَكَانَ لَهَا قِدْمًا مِنَ اللَّهِ نَاصِرُ
فَلِمَّا دَنَوْنَا لِلْقَبَابِ وَأَهْلِهَا
أُتِيحَ لَنَا ذَيْبٌ مَعَ اللَّيْلِ فَاجِرُ
أُتِيحَتْ لَنَا بَكْرٌ وَحَتَّ لِوَائِهَا
كَتَابُ بَرِضَاهَا الْعَزِيزِ الْمَفَاخِرُ
وَكَانَتْ قُرَيْشٌ لَوْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ
شِفَاءً لَمَا فِي الصَّدْرِ وَالْبُغْضُ ظَاهِرُ
حَبَّتْ دُونَهُمْ بَكْرٌ لَمْ نَسْتَطِعْهُمْ
كَأَنَّهُمْ بِالْمَشْرِفِيَّةِ سَامِرُ
وَمَا بَرِحَتْ بَكْرٌ تَثُوبٌ وَتَدَعَى
وَيَلْحَقُ مِنْهُمْ أَوْلُونَ وَأَخِرُ
لَدُنْ غَدْوَةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ وَالْجَلْتِ
غَمَامَةٌ يَوْمَ شَرُّهُ مُتَظَاهِرُ
وَمَا زَالَ ذَلِكَ الدَّأْبَ حَتَّى تَخَاذَلْتِ
هَوَازِنُ وَارْفَضَّتْ سُلَيْمٌ وَعَامِرُ
وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يَفْلُقُ الصَّخَرَ جَدَّهَا
إِذَا أَوْهَنَ النَّاسَ الْجُدُودُ الْعَوَاتِرُ (٢٢)

يبدو الشاعر هنا كأنه مؤرخ لما يقع أمامه . فقد عمد

الشاعر .وببدأ بوصفه والدوران حوله . فضلاً عن طغيان صوت الشاعر أكثر من أصوات الأشخاص . بتكريسه لصفات وخصائص مرتبطة بمشاعره وأحاسيسه . فيكاد صوت الآخرين يغيب .
فالشعر القصصي — عموماً — يدور حول صور يسرد فيها الشاعر ما كان قد حدث فيها من قول أو فعل أو محاورة تخيلها أو وقعت له بالفعل . وهذه المقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق تقنية قصصية اصطفت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

الخاتمة

إن الشعر القصصي أسلوب فني أنتج إليه شعراء الأصمعيات لتصوير واقع حياتهم . فالشاعر دائماً يهدف إلى تسخير أو توظيف جل طاقاته الإبداعية . وقدراته الفنية لبلوغ الهدف الذي يرمي إليه . ألا وهو التعبير عن أفكاره ومشاعره ورغباته . والتأثير بالمتلقي وإحداث المتعة في آن واحد . وأثناء ذلك يسلك طريقاً طويلاً . وأساليب مختلفة للوصول إلى هدفه . ولذلك أوجد الشعراء في القصة الشعرية وربما بعض عناصرها المجال الواسع للتعبير عن أفكار امنوا بها . أو مواقف مروا بها . وفي الوقت نفسه كسب إعجاب المتلقين والسامعين . فأنتجوا الشعر القصصي بما يمتلك من مقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق نفسية قصصية اصطفت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

وما جدر الإشارة إليه أن الشعر القصصي عند شعراء الأصمعيات . يمتاز بالاستطراد والعفوية . إذ تطالعنا في القصيدة الواحدة أكثر من قصة . وجد تفاوتاً في عناصر تلك القصص سواء في الشخصيات أم في الأحداث أم في الزمان والمكان أم في النتيجة . ويلاحظ في بعض القصائد أنها قائمة على حوار يأتي أحياناً بسيطاً لا يخرج عن نطاق المساجلة الآتية والأثر الذاتي . وبعضه يكون طويلاً تنبعث فيه فلسفة الشاعر في الحياة وما يحيط به . والتي تظهر بها ملامح الإصرار الذي دفعه إلى هذا السلوك . وقد يكون هذا الحوار متخيلاً إذ لا وجود للنسوة حقيقة بل هنّ من تخيل الشعراء . وهذا على سبيل المثال لا الحصر . وقد تكون حقيقية أوجدها الانفعال والموقف

وَصَبَّحْنَا الْوُحُومَ بِيَوْمٍ سَوُوءٍ
يُدَافِعَنَّ الْأَسِنَّةَ بِالنُّحُورِ
كَأَنَّا غُدُودَةٌ وَبَنَى أَبِينَا
بَجَوفِ عُنَيْزَةٍ رَحِيًّا مُدِيرِ
فَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمَعَ أَهْلَ حَجْرٍ
صَلِيلِ الْبَيْضِ يُقَدِّعُ بِالذِّكُورِ (٢٣)

لقد بدأ الشاعر قصيدته بوصف الحالة النفسية الصعبة والمزربة التي يمر بها . ثم أنتقل بعد ذلك إلى حديث الفخر بنفسه . لأنه نال الثأر من قاتل أخيه . ثم العودة إلى القتل وتأبينه . ويلاحظ أنّ الشاعر قد جسد عناصر السرد القصصي من شخصيات المتمثلة بالشاعر وأخيه والحادثة المتمثلة بحادثة القتل والمكان المتمثل بـ (الذنائب) موضع قتل أخيه . والزمان المتمثل بتلك الليلة في ذي حسم التي جلبت الحزن والأسى للشاعر . فضلاً عن ذكره لشخصيات مهمة وهم فرسان بني بكر (همام بن مرة) . ثم يمضي الشاعر مفتخراً بقومه ويصف شجاعتهم . فإن قوة منازلتهم بلغت القمة في الشدة والبأس . إذ إنّ صليل السيوف تسمع بها الأقوام الأخرى في مواضع بعيدة . وهذا الحديث فيه من المبالغة والغلو بما لا ينكر .

وهنا يتصاعد الحس البطولي والافتقار الفردي والجماعي في آن معا . لأنه في معرض الأخذ بالثأر للمقتول . فلا بد أنّ يبرز جو التحدي والشدة . بما يمنح الواقعة قوة إحاء وعمق تأثير واستجابة .

وما تقدم يلاحظ أنّ اللغة التي جاءت في القصائد التي يظهر فيها السرد القصصي منها قصص طغت فيها الموضوعية . وتقع مضامينها خارج ذات الشاعر والمتمثلة بقصص (الحيوان) . إذ تكون اللغة فيها ذات ألفاظ بدوية مستمدة من طبيعة البيئة الصحراوية . ومنها قصص تجد فيها ذات الشاعر طاغية وتكون فيها اللغة بعيدة عن الألفاظ والتراكيب

المعقدة . وخاصة في القصص التي تحكي المغامرات العاطفية . فتكون ذات انسيابية مؤثرة لأنها مرتبطة بالتعبير عن عواطفه ومشاعره بكل عفوية وصدق شعوري .

وما يلاحظ في هذا النمط من الاستعمال أيضاً غلبة عنصر الوصف فيه أكثر من المبنى الحكائي . فغالبا ما يقتصر النص على حدث واحد يسرده

قول ، القله عود طول شبر يلعب به الأولاد ، نهيلة هرمه . مبهله مهمله ، العلة الجزع . وينظر أيضاً ص ٢٦، ٣٠ .
(١٥) القصة في الشعر العربي : ٥٢ .

(١٦) أصمعية ١٥ ، الركاب: الإبل، اللفاظ: ماء لبني إباد،
لعلع: موضع .

(١٧) أصمعية ٧٥ .

(١٨) أصمعية ١٣، الأخنس: أراد الثور والخنس: قصر الأنف
ولصوقه بالوجه ، الناشط: الثور الوحشي الذي يخرج من
بلد إلى بلد ، الأحم: الأسود، الشوى: جماعة الأطراف وهي
اليدان والرجلان والرأس، الاجماد: هو ما ارتفع من الأرض،
حومل: موضع، الصلى: اسم للوقود، غدية: تصغير غدوة،
القنص: الصيد، يشلى: يغري، عطاف وأجبل: اسما كلبين،
الوحشي: الجانب الأيمن وقيل الأيسر، اليعسوب: أمير
النحل ، الروق: القرن، النهل: أول الشرب، العلل: الشرب
الثاني، ضاريات : الكلاب، القين : الحداد، أخول: متفرق ،
المديان: مثنى مدري وهو القرن، تفلل : تثلم.

(١٩) وينظر أيضاً أصمعية ٥٨، ٦٦، ٧٦، ٨١ .

(٢٠) ينظر أصمعية ٦٦ ، الحذاقي : يعني نفسه ، نتجنا
نتاج الناقة ، الحوار : ولد الناقة ، الظليم : ذكر النعام ،
الجن : الترس ، العرار : صوت الظليم ، الهجل : الغائط
، الصوار : القطيع من البقر ، الصفار : نبت له شوك ،
الغوار : الغارة ، السدفة : الضوء، الهلوك : المرأة الفاجرة
، الاقورار : تشنج الجلد ، الضروح : الفرس ، سامى التليل
: مرتفع العنق ، المنتان : مكتنفا الصلب عن يمين وشمال
من عصب ولحم ، الأجدل : الصقر، النصول : خروج النصل
من الرمح .

(٢١) أصمعية ٦٧، مخطط: موضع كان به يوم من أيامهم
، يهلون: رفع الصوت، عمارا : معتمرين، تغوروا: أتوا الغور،
أجدوا: أتوا جدًا، السرح: الإبل الراعية، الضناك : الموثق
الخلق الشديد ، فردوس الأيادي: روضة ديار بني يربوع ، بنو
البرشاء: هم ذهل وشيبان وقيس أبناء ثعلبة ، والبرشاء
لقب أمهم .

(٢٢) أصمعية ٧٩، وينظر أيضاً أصمعية ٣٤، ٦٩، ٧٠، ٧٧ .

(٢٣) أصمعية ٥٣، الذنائب : موضع ، الشعثمين: موضع
ويوم واردات من أيام حرب البسوس ، عنيزة : موضع حجر:
من مدن اليمامة، الصليل : صوت السيوف ، الذكور: اشد
السيوف ، وينظر أيضاً ص ٢٥ .

الشعوري ، أو جاء به الظرف المناسب ، لذا جُذ في شعر
شعراء الأصمعيات السرد القصصي الأني لكونه يروي
أحداثاً قد عاشها ووقعت له فعلاً .

الهوامش

(١) ينظر القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر
الإسلام والعصر الأموي : ٣٦٢ .

(٢) ينظر الأدب القصصي : ٣٤ .

(٣) ينظر النقد الأدبي الحديث : ٤٥٤ .

(٤) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام : ١٥ .
(٥) المصدر نفسه : ١٦ .

(٦) ينظر أصمعية ١٤ ، وهي أصمعية للشاعر المنخل
اليشكري ، وينظر عن تفصيل هذه القصة المصدر
السابق : ١٥٥ .

(٧) ص ٦٨، الخليط: القوم الذين أمرهم واحد، العروب:
الضاحكة، والمتحبة إلى زوجها، شكول: جمع شكل وهو
الضرب، القصد: الوسط بين الطرفين، الجيلة الغليظة،
القضف: النحيفة، السدف: ظلمة الليل، الزهراء: البقرة
الوحشية ، اللبة: وسط الصدر والمنحر ، الجلف: القشر،
اثلة: اسم صاحبه .

(٨) ينظر الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي
وشعره : ٢٠٥ / ٢ .

(٩) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام :
١٢٨ .

(١٠) أصمعية ٦٥ ، واكنات: جالسات، يقضمن: الأكل
بإطراف الأسنان ، الضرم: شجر طيب الريح، نخلة: موضع،
يكتبن : يتبخرن بالكباء، الينجوج: العود، كبة المشتى:
شدة الشتاء ، بله أحلامهن: غافلات عن الحنا ، وسام:
جمع وسيمة أي الثابتة الحسن .

(١١) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام :
١٢٨ .

(١٢) ينظر أصمعية ١٢، ٥٦ .

(١٣) ينظر أصمعية ١٠، ١٩ .

(١٤) أصمعية ص ٩٠ ، طيسلة اسم قبيلة ، ملقا فقيراً ،
دالفا من الدلف قصر خطوه وضعفه ، لا جنبت لا حبيت
، المزوودة الخائفة ، حللنا المكان أقمنا فيه ، الضلضلة
موضع ، ارتبعنا أقمنا، الجعلة موضع ، النصف التي بلغت
خمسا وأربعين ، الجنعدله الصخرة الكبيرة ، القيلان جمع

المصادر والمراجع

- فن كتابة القصة .حسين القباني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، مصر ، (د.ت).
- القصة في الشعر العربي . ثروت أباطة ، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م.
- القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي . بشرى الخطيب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠م.
- النقد الأدبي الحديث .الدكتور محمد غنيمي هلال ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط٤، ١٩٦٩م.
- الأدب القصصي عند العرب .موسى سلمان ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط٤، ١٩٦٩م.
- الأصمعيات ،اختيار الأصمعي . أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (ت٢١٦هـ) ، تحقيق احمد محمد شاكر ،وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر، ط٧، ١٩٩٣.
- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره . الدكتور صلاح عبد الحافظ ،دار المعارف بمصر، ١٩٨٢م
- السرد القصصي في الشعر الجاهلي . الدكتور حاكم حبيب الكريطي ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .